أسبوعيات نائب ٢١ / ٤ / ٢٠٠٣

دور الفريق ماهر سفيان التكريتي في تسليم بغداد

أول الدروس المستفادة : نموذج خيانة الحلقة الضيقة حول الحاكم الفرد

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

كان معنى سقوط بغداد الفجائي المحير دون قتال ، حدوث خيانة أوحى بها وجود عملية تسليم مفترضة جرت في الخفاء ولم يظهر صاحب السلطة الذي عقد صفقتها . فحدوث الخيانة هو التفسير الوحيد لدخول الدبابات الأمريكية في ذلك الصباح الأغبر إلى بغداد وتقدمها نحو فندق فلسطين على ذلك النحو الذي شوهد على القنوات الفضائية . ولذلك أصيب الناس في بلادنا العربية والإسلامية بالصدمة والذهول والحزن . وكان أخوف ما يخافونه وهم في غمرة هذه الحالة أن يكون الرئيس صدام حسين هو صاحب تلك الصفقة وأنه قام بتسليم بغداد للأعداء مقابل ضمان سلامته الشخصية وسلامة جماعته .

وبعبارة أخرى : كان معظم الناس يقرون بأن جيش العراق لا يستطيع أن يحقق نصرا على جيش الولايات المتحدة الأمريكية . ولكنهم أملوا في معركة يخرج منها الأمريكيون مثخنين بالجراح ولو كانوا منتصرين . فمن شأن ذلك أن يحمل الأمريكيين على التفكير ألف مرة قبل أن يشنوا حملات الدمار والاستعمار على أي قطر من أقطار المنطقة . حقا ! كان الوعي الغريزي لرجل الشارع البسيط يربط بين المعركة في العراق وبين مستقبل كل بلد من بلدان المنطقة . ولذلك كان رجل الشارع شديد السخط على الحكام الذين لم يفهموا هذه الحقيقة ، أو فهموها ولكن خضوعهم للأجنبي سمرهم في كراسيهم .

ولم يتأخر انكشاف الستار عن لغز سقوط بغداد . فقبل مرور أسبوع على انتهاء الحرب ، كشفت صحيفة اللوموند اليمينية الفرنسية شطرا من قصة الخيانة الأسطورية التي صبغت هزيمة لم تكن مستبعدة بصبغة عار فاجع اقتحم حياة العرب والمسلمين في كل مكان وتجرعت مرارته الأمة كلها .

وحينما نحاول في هذا المقال وسلسلة المقالات اللاحقة أن نستنبط الدروس مما حدث في العراق ، فإنما نفعل ذلك لعلمنا أن بين نظام الحكم وممارسة السلطة في العراق وبين غيره من البلدان المجاورة وجوه شبه كثيرة ، ولعلمنا أيضا أن ما تعرض له العراق من عدوان واسع قد يتكرر في بلدان أخرى في ميادين عديدة وبأشكال مختلفة . أي أن جوهر الغزو والعدوان مبيت على منطقتنا (وفقا للتصريحات الرسمية الأمريكية نفسها) غير أن نشر الجيوش واستخدام أسلحة المشاة والمدرعات والطيران والبحرية ليس هو الشكل الوحيد للحروب والأعمال العدائية .

حب العراق

ويجب أن يكون واضحا أن محاولتنا استنباط الدروس من تجربة العراق تختلف اختلافا تاما في روجها ومقاصدها عن نهج الذين ينهالون على البقرة لدى وقوعها بسكاكينهم الجاهزة . فليس مقصدنا أن نلقي بالقذر على قبر أحد إذ إن الأموات جديرون بالترحم عليهم . والتقطيع في جسم العراق تقطيع في أجسادنا لأن المصير واحد ، ولأننا نحب العراق ولن ننسى صنيع صدام لشهداء فلسطين :

حب العراق جرى في عمق أعماقي جري الفرات بزرع يطلب الساقي

وجري دجلة في غاب النخيل إذا تشقق الرمل من يُبْسٍ وإملاقِ

القلب ملك شهيد الحق في بلد لم يرض بالحق قولا دون إحقاق

عدا عليه لصوص النفط بارزة أنيابهم ملء أفواه وأشداق

يا راعي البقر الغازي بطائرة منها يرى الناس أبقارا بأطواق

ما أنت أول هولاكو أخي بقر معطل الروح والوجدان أفاق

غدا ترى الشرق إذ ينشق قمقمه وينجلي الصبح عن بركان عملاق

فداء بغداد شمس المشرقين وما أضاءت الشمس من دنيا وآفاق

غير أن ذلك شيء واحد ، وتقييم الحكم ونظامه شيء آخر . وقد كتبنا في هذه الزاوية قبلا ، قبل هذه الحرب ونتائجها الفاجعة ، قائلين إننا نتحفظ بالنسبة لأمور عديدة في بغداد ، وكان من بين تلك الأمور حرب النظام التي

لم يكن لها مبرر مقبول ضد إيران ، ثم حربه التي زينتها له السفيرة الأمريكية غلاسبي ضد الكويت !

ولما كنا نحن الفلسطينيين قد وقعنا تحت ركام عدة هزائم ، فكابدنا هزيمة النكبة عام ١٩٤٨ وهزيمة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وهزيمة النكسة عام ١٩٦٧ ثم اصطلينا برغمنا بلهيب حرب الخليج عام ١٩٩١ ؛ ورأينا انهيارات الجيوش في مستهل تلك الحروب غالبا ، على الرغم من الضجة الإعلامية الهائلة التي مهدت لها ورافقتها . فكأنها كانت بالونات ضخمة فرقعت بسهولة . لذلك كله كانت لدينا حساسية خاصة من القرارات بالحروب التي لا تبنى على حسابات دقيقة :

عشية السباق كانت الزهور في نحر كل غادة تذرذر العطور

وفي الظهيرة انبرى المذيع للنساء يرخين إكليل الندى على دم الوليمة

خطى ..خطى.. يقودها الذهول إلى فيافي الصمت في الحقول

ومن بعيد ضجة الطبول تغيب خلف مسرح الجريمة !

وكان واضحا أن الولايات المتحدة ستستخدم ضد العراق أحدث وأقوى ما في ترسانتها الحربية من أسلحة ، وأنها لن تقبل الهزيمة النهائية في الميدان ولو ألجأها ذلك إلى استخدام سلاح نووي . أما الآمال التي كانت معقودة على مقاومة عراقية مؤثرة فمردها إلى أن الجيش العراقي معروف بقدراته القتالية التي صقلتها الحروب المتلاحقة . وكذا البنية التحتية العلمية التي سهر نظام صدام على إنشائها عبر سنوات طويلة .

وفي أجواء المعركة لم يكن من الممكن التشكيك في النتيجة النهائية والتبشير بالهزيمة فبالإضافة إلى أن الحرب فرضت على العراق فرضا رغم المحاولة التي بذلها النظام لتجنبها ولو بإراقة ماء وجهه (حين جارى المفتشين الدوليين في طلباتهم التي لم تكن تنتهي) ، فإن تأكيدات الإعلام العراقي ولهجة وزير الإعلام محمد سعيد الصحاف على بلوغ النصر النهائي ، عزز لدى الجماهير العربية والإسلامية المتعطشة لأي انتصار ذلك التعلق المتأصل في شرقنا المؤمن بالمعجزة والأعجوبة . وقد تطلع الكثيرون إلى عامل الطقس والمناخ في الخليج عسى أن تنبع منه المعجزة والأعجوبة .

من أين أتت الخيانة ؟!

كان الرئيس صدام حسين قد احتفظ بوحدات الحرس الجمهوري للدفاع عن بغداد وضواحيها ، بالنظر إلى أن هذه الوحدات المختارة والمميزة بنوعية تدريبها وتسليحها هي أفضل ما لدى الجيش العراقي . وسوف نتساءل تساؤلا عابرا : لماذا كان الحرس الجمهوري مشتملا على هذه الأعداد الكبيرة من الوحدات ومئات ألوف الجنود ؟ أما كانت فرقة واحدة تكفي لتحمل اسم الحرس الجمهوري ؟

وقد نصب الرئيس ولده قصي قائدا للحرس الجمهوري . ولسنا بحاجة لمعلومات تجعلنا نقرر أن الفتى الشاب كان يفتقد الخبرة والتجربة الكافية ، هذا إذا لم يكن أيضا يفتقد العلم اللازم بفن الحرب ، وربما ـ أخيرا ـ الخبرة بالرجال ونفسياتهم وأطوارهم . وذلك كله إجمالا يشير إلى نمط الذهنية التي لا تحس بالأمان إلا إذا تقلد الأبناء المراكز الأقرب إلى مركز الآباء كما يشير إلى استباحة هؤلاء الآباء النظر إلى المناصب العامة والأموال العامة بوصفها ملكا شخصيا خاصا من حق الرئيس أن يهبه لذراريه أو لمن يشاء بغض النظر ـ طبعا ـ عن المؤهلات والمواصفات التي يتطلبها المنصب . فكأنما الرئيس في عصر العرب الحديث هو ذاته السلطان الذي تتحدث كتب الأدب عندنا عن اغترافه من المال العام وعطائه للشعراء المادحين وذلك في قصص طريفة تشتمل على عبارات من نوع (فخلع عليه خلعة سنية ، وأعطاه ألف ألف درهم) !

على أن التجاوز عن هذه المسألة بالقول إن المنصب كان شرفيا أكثر منه حقيقيا ميدانيا على المستوى العملي ، يستلزم في التفكير السديد أن يكون الشخص الثاني في التسلسل القيادي رجلا يجمع بين الأمانة وبين الاحتراف . وليس ضروريا أن يكون من الأقارب . ولكن الرواية الفرنسية التي نميل إلى تصديقها بحكم أنها تقدم أجوبة مقنعة تكمل الملاحظات التي شاهدناها بأعيننا تقول إن الخائن الذي أدخل الأمريكيين إلى عاصمة بلده هو الرجل الثاني في الحرس الجمهوري ورتبته فريق ركن واسمه ماهر سفيان التكريتي وهو أحد أبناء عمومة الرئيس صدام حسين .

ونباشر بتلخيص القصة نقلا عما تسرب من المصادر الاستخباراتية وما نشر في الصحافة الفرنسية :

- في نطاق الدور المنوط بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية(السي آي إيه) لاختراق العراق ومجتمعه ونظامه ، استخدمت الوكالة أفرادا مختارين من المعارضة العراقية ، لاسيما الضباط السابقين ، كي تتصل عبرهم بمن يعرفون من زملائهم الضباط العاملين في القوات المسلحة العراقية لمحاولة تجنيدهم في انتظار تنفيذ الخطط الأمريكية المرسومة .
- استطاع ضابطان من ضباط المعارضة العراقية في الخارج أن يجندا ماهر سفيان . متى ؟ لا أحد يدري . وهكذا ، بتجنيد الرجل الثاني في قيادة الحرس الجمهوري صارت الطريق إلى كثير من الأسرار والمواقع سالكة . ولا شك أن خيانة هذا الرجل أدت إلى أفعال خطيرة للغاية وإلى اختراقات مذهلة في الدفاعات العراقية ، ليس في داخل بغداد وحدها بل في طول تلك الدفاعات وعرضها في المنطقة الداخلة ضمن واجبها في خطة العمليات ، وربما يفسر هذا كيف قاومت الوحدات العراقية التي لم تكن تحت قيادة الحرس الجمهوري في الجنوب (أم القصر والبصرة والناصرية) في حين تقدمت الدبابات الأمريكية بسرعة كبيرة نحو بغداد ثم قفزت داخل بغداد دون طلقة واحدة .
- وقد كان تركيز الأمريكيين على محاولة التخلص من الرئيس والقيادة واحدا من الأغراض الأساسية التي اعتقد الأمريكيون أنها تؤدي إلى تقليل الخسائر وتقصير أمد الحرب . وصار ماهر سفيان هو المخبر الأهم الذي يزودهم بأماكن تواجد صدام . وعندما زودهم بالنبأ الأخير عن المنزل الذي اجتمعت فيه القيادة في حي المنصور مساء الثلاثاء ٨/ ٤ / ٠٣ فقد جرى قصفه بعد اثنتي عشرة دقيقة من تلقي الإخبارية وفق ما صرح به الطيار الأمريكي الذي قام بمهمة قصف المنزل بعدد من القنابل والصواريخ الموجهة والذكية .
- وهنا ، وسواء قتل صدام حسين وولداه وقيادته في ذلك القصف أم لم يقتلوا ، فإن شيئا غير عادي قد حدث ، نتج عنه خلو الميدان للرجل الثاني وانفراده بالقرار والسيطرة على وحدات الحرس

الجمهوري في اليوم التالي أي الثلاثاء ٤/٩ /٠٣ . وتقول الرواية الفرنسية أيضا إن الاتصال كان مباشرا في ذلك اليوم بين الخائن وبين الغزاة ، وذلك بواسطة أجهزة اتصال دقيقة للغاية كانت السي آي إيه قد أرسلتها ، بتدبير سابق من قبل ، مع بعض الأفراد الأمريكيين الذين وصلوا إلى بغداد بداعي كونهم دروعا بشرية من نشطاء السلام في أمريكا ، متطوعين لحماية المرافق الهامة ، كالماء والكهرباء ، من القصف الجوي .

وتنسب الرواية الفرنسية إلى أولئك الجواسيس دورا أكبر من دور مراسل يوصل

الأجهزة الدقيقة من مكان إلى مكان . فقد كانوا على اتصال مستمر مع قيادتهم

أثناء القصف بغية الإرشاد وتصحيح القصف . ولكن الأهم أنهم لعبوا دورا معينا

في مفاوضات آخر لحظة بين ماهر سفيان وبين الأمريكيين . فقد رتبوا ما بين

الطرفين من تدابير تفصيلية نهائية .

- كانت الصفقة تقوم على الآتي : يضطلع سفيان بمهمة إصدار الأوامر إلى مرؤوسيه بتسليم أسلحتهم في ثلاث نقاط في بغداد مدعيا لهم ومقنعا إياهم أن الخطة تغيرت ، وأن الخطة الجديدة تقضي بترك العدو يدخل إلى بغداد ، ثم بعد ذلك يجري توزيع الأسلحة والواجبات لمقاومة المحتل .

أما الأمريكيون فتعهدوا بتجهيز طائرة كبيرة تقوم بنقل الخائن ومجموعة العملاء

الذين تبعوه أو المزروعين أصلا في جسم الحرس الجمهوري ، إلى الولايات المتحدة

وقد منحوا جميعا الجنسية الأمريكية ووعدوا بمبالغ مالية .كما وعد الراغبون

منهم بالبقاء في العراق بمناصب في الإدارة التي سيشكلها المحتلون .

الفرق بين راحاب وسفيان

وهكذا تمت عملية احتلال بغداد بطريق الخيانة التي لم تكن في حسبان أحد . والحقيقة أن صدام حسين كان قد تطرق ذات مرة ، في تصريح من تصريحاته قبل الحرب محذرا من الخيانة . ولكن ذلك لا يعفي الرجل المسؤول من مسؤوليته . فعندما تأتي الخيانة من مومس كراحاب التي فتحت للعبريين سور أريحا ، فإن الشيء من معدنه لا يستغرب . أما أن تأتي الخيانة من ابن العم القائد الموثوق الذي تأسست الثقة فيه على عامل القرابة العشائرية ، فإن ذلك - إن صح - يجعل الرئيس الذي عينه مسؤولا بكيفية ما عن عمله ما دام قد أخذه على عاتقه ومنحه امتيازا تجاوز به الضباط الذين قد يفوقونه من جميع النواحي .

يضاف إلى ذلك أن قائد قوات فدائيي صدام كان بدوره من ركاب الطائرة التي أقلعت بسفيان وصحبه إلى أمريكا . ونحن لم نعرف بعد اسمه ولكن يغلب على الظن أنه يمت بصلة خاصة للرئيس .

وهذه الواقعة التي رأيناها في العراق ، ورأينا نتائجها وعواقبها ، ليست مجرد واقعة ، بل ظاهرة متكررة في معظم البلاد العربية . فالحاكم يتصرف بالوظيفة العامة تصرفه في ماله الخاص دون قيد ، فينصب أخصاءه وأحباءه وأقرباءه في المراكز الهامة التي يراها لائقة بمقاماتهم .وعندما يقصر ذلك الرجل المختار في واجباته أو يبرهن عن عجزه فإن أحدا لا يستطيع محاسبته . وبذلك يظل يستهلك ما يستهلك من المال العام ، لأن معه تذكرة صعود وضمان ضد المحاسبة . وعندما يخون فإنه يكون الأقدر على الخيانة وتحميل الوطن والناس توابعها ومغارمها .

وفي المثال العراقي يحدث المرء نفسه متسائلا : ألم تكن أحذية الضباط الذين قادوا الوحدات الموجودة في أم القصر والبصرة والناصرية وكربلاء ، والذين سجلوا صمودا دام واحدا وعشرين يوما في وجه الجيش الأمريكي ، أشرف من رؤوس النخبة المختارة التي وضع النظام مصير معركة العراق

بين أيديها ؟ أعرف أن بيننا نحن الفلسطينيين كثيرين ممن لا يودون أن يكدر جميل صدام أي نقد يوجه لعهده . ولكن المسألة ليست هكذا . فالمقصود هو تعلم الدرس وليس الكدر . وتصرف الحكام في الإدارات العامة والوظائف العامة بالشكل غير الحضاري وغير النزيه وغير الحق يحمل معنى شاذا فحواه أن الحاكم إذ وصل إلى سدة الحكم فقد بات مالكا للوطن . وهذا يناقض ، على طول الخط ، المفهوم الصحيح الذي يقول إن الحاكم خادم لشعبه ولوطنه ، وإنه يستمد من هذا الوصف شرفه ورفعته .

كم مرة تحدث الإعلام العراقي عن الحرس الجمهوري بلهجة التفخيم ! ومع ذلك فإن هذا الحرس الجمهوري هو الذي اقتضى الوطن أفدح التكاليف ، وعندما وقعت الواقعة إذا به يسلم للعدو ترسانة السلاح كلها وخيرات البلاد كلها وأهم وأغلى من السلاح ومن الخيرات : شرف الأمة وكرامتها .

ترى .. كم في البلاد العربية من أمثال لهذا الأنموذج التعس ؟ كم فيها من سفيانين ! كم فيها من حراس جاهزين لتسليم المفاتيح !

والآن ، وبعد أن وقع الزلزال الذي استولدته الخيانة في العراق ، أين ستنتشر توابعه ؟

ومتى يفهم الحاكم العربي أن الذي يصل إلى سدة الحكم لا يصبح مالكا للبلاد ؟ متى يكف الحكام عن تحويل الجمهوريات إلى ملكيات ، ومتى يتذكرون أن الشرع يجعل الوراثة تسري في الأموال الخاصة الشخصية لا في الأوطان ولا في الأموال العامة !؟

هل بقي أحد في العالم المتحضر غيرنا ـ نحن العرب ـ يحيط نفسه بعشيرته التي يوظفها على نفقة المال العام والتي يستخدمها ضمانة للبقاء في منصبه حتى القبر .. حتى القبر .. حتى القبر !؟